

جابر بن حيان والكيمياء في دراسة المستشرق الفرنسي هنري كوربان

د. نبيل فتحي حسين

وزارة تربية إقليم كردستان

المديرية العامة للمناهج والمطبوعات

العراق

تناول المستشرق الفرنسي هنري كوربان (Henry Gorbin) في دراسته عن أبي عبد الله جابر بن حيان الكوفي المعروف بالصوفي (ت 200هـ/815م)، والتي ضمّنها كتابه "تاريخ الفلسفة الإسلامية" (1)، ثلاثة محاور مهمة هي: الاختلاف التاريخي حول حقيقة وجود (جابر) وحقيقة مؤلفاته، والنظريّة الجابريّة عن الميزان، والنظريّة الجابريّة عن ميزان الحروف (2). وهي محاور، سنحاول خلال الصفحات القليلة القادمة، أن نقف عندها ونناقش أهم ما ورد فيها.

ولا بد من الإشارة - ابتداءً - إلى أن المحاور التي تناولها (كوربان) ليست شاملة لكل جوانب حياة (جابر) وطروحه الكيميائية والفلسفية؛ وباستثناء الأول منها، والذي يعالج قضية لا سبيل إلى إنكار أهميتها، فإن المحورين الثاني والثالث تناولوا قضيتين محددتين، مهمتين أيضاً، تتصلان بالتشيع بوجه عام، والتشيع الإسماعيلي بوجه خاص، ولكن ذلك كان على حساب قضايا أخرى جديرة بالبحث، تضمّنتها كيمياء (جابر)، مثل: أهداف الكيمياء، ومنهج البحث الكيميائي، وتصنيف العلوم، وفلسفة الكون، وعلم التكوين...إلخ.

جدير بالذكر أن الطابع الغالب على نتاج (كوربان) يعكس اهتماماً واضحاً بالتصوّف والتشيع، وإن مفردات كتابه "تاريخ الفلسفة الإسلامية" تدلّ بوضوح على مثل هذا الاهتمام. وهذا ما تنبّه إليه عبدالرحمن بدوي الذي يشير إلى أن (كوربان) بالغ في هذا الكتاب مبالغاً شديدة في إبراز نصيب الفكر الشيعي، على حساب الإجحاف الغريب بالفكر السنّي (3). ويعلل بدوي عناية (كوربان) بالمذهب

¹ بالتعاون مع سيد حسين نصر، وعثمان يحيى، ترجمة، نصير مروّة، وحسن قبيسي، راجعه وقدم له، موسى الصدر، وعارف تامر (ط2)، بيروت: عويدات للنشر والطباعة، 1998). وهذا الكتاب كان في الأصل جزءاً من كتاب بعنوان "تاريخ الفلسفة" صدر عن دار جاليمار في باريس في مجموعة "La Pléiade"، قبل أن يصدر عن الدار نفسها في كتاب مستقل في مجموعة "Idées". يُنظر: عبدالرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين (ط3)، بيروت: دار العلم للملايين، 1993)، ص485. جدير بالذكر أن الطبعة الأولى للكتاب مستقلة، بنسخته الفرنسية، ظهرت في سنة 1964.

² (كوربان، المرجع السابق، ص202-209).

³ (المرجع السابق، ص485).

الإسماعيلي - تحديداً - إلى نزوعٍ موجّهٍ لفكره، ثيوصوفيّ إشراقيّ عرفانيّ موغلٍ في الأسرار والتّهاويل، يستند إلى الوجدان والتّجربة الصّوفيّة، ويشيخ عن النّزعة العقليّة⁽⁴⁾.

فيما يتّصل بالمحور الأوّل، المختلف فيه قديماً وحديثاً، وهو حقيقة (جابر) وحقيقة مؤلّفاته، فإنّ (كوربان) - الذي يرى أنّ المجموعة الضّخمة من المؤلّفات التي تحمل اسم (جابر) هي "هزميّة"^(*) في عددٍ من مصادرها - على الرّغم من إحالته القارئ إلى العمل الضّخم الذي كرّسه لها المستشرق التشيكيّ الشّهير باول كراوس (Paul Eliezer Kraus)، والذي يصفه بأنّه "بقي رديحاً من الزمن المرشد الأمين في الدّراسات الجابريّة"⁽⁵⁾، فإنّه يستشعر خطورة إصدار حكم نهائيّ في هذا الموضوع، حيث يقرّ بأنّ إعطاء الحكم الفصل على هويّة مؤلّف هذه المجموعة هو موضوعٌ خطير⁽⁶⁾.

وتأسيساً على ذلك فإنّ (كوربان) يرفض آراء المستشرق والكيميائيّ الفرنسيّ الشّهير برتلو (Marcellin Berthelot) الذي انصرف بشكلٍ خاصٍ إلى دراسة مؤلّفات (جابر) اللاتينيّة، وانتهى به البحث إلى "إنكارٍ كليّ وغير مدعومٍ برهانيّاً، لكون الوثائق صعبة المنال"⁽⁷⁾. هذا ما يقوله (كوربان) في تقييمه لموقف (برتلو) من هذه المسألة الخلافية، دون أن يقدّم لنا أيّ توضيحاتٍ حول ما تحتويه آراء (برتلو) الذي يُقسّم نتاج (جابر) قسمين: أحدهما فيه الدّسم العلميّ، وينسبه إلى مؤلّفٍ مجهولٍ، انتحل لمؤلّفاته اللاتينيّة في العصور الوسطى اسم (جابر)، ليحتمي بسمعته وشهرته، والآخر فيه التّفاهة والغثاثة، وهو الذي يجوز نسبته إلى (جابر) العربيّ، زاعماً بعد تحليله للمؤلّفات المنسوبة لـ(جابر) - وبعضها عربيّ خالصٌ، وبعضها لاتينيّ وله أصلٌ عربيّ، وبعضها لاتينيّ ولا توجد له صورةٌ عربيّةٌ - أنّ ثمة تفاوتاً في مادتها وفي أسلوبها يتطلّب التّفكير⁽⁸⁾.

وينتقد (كوربان) آراء المستشرق الألمانيّ روسكا (Julius Ferdinand Ruska) الذي حاول أن يتّخذ موقفاً وسطاً بنفيه التّأثير المباشر للإمام الشّيعيّ السّادس أبا مُحَمَّد جَعْفَر بن مُحَمَّد، المعروف بجَعْفَر الصّادق (ت 148هـ/765م) بقوله: "وهذا النّقي يتجاهل وجود تراثٍ شيعيّ ثابتٍ ولكنّه يقرّ بوجود تراثٍ له مراكزه في إيران"⁽⁹⁾. وهذه العبارة تدكّرنا بما أشار إليه (كوربان) في موضعٍ آخر، وفي سياق حديثه عن دور العلماء الإيرانيين في الحركة العلميّة التي شهدتها العصر العبّاسي، باعتبارهم وسطاء في الفلك، إلى جانب السّريان، الوسطاء الأساسيون في الفلسفة والطّب، حيث نبّه - اعتماداً على وجود بعض

⁽⁴⁾ المرجع نفسه، ص482، ص484.

^(*) وفقاً للمستشرق الفرنسيّ (بيير لوري) فالهزميّة هي المذهب الفلسفيّ الباطنيّ المعروف في مجموعة الرسائل المنسوبة إلى "هزيمس المثلث بالحكمة"، والمؤلّفة في الإنكذريّة خلال القرون الأولى للميلاد، أو هي الشكل الفلسفيّ لنظريّات المصريين القدماء. يُنظر: أبو عبدالله جابر بن حيّان الكوفيّ، مجموعة مؤلّفات في الخيمياء والإكسير الأعظم، دراسة وتقديم، بيير لوري (لبنان: دار ومكتبة بيبليون، 2008)، ص6-7، هامش رقم (2).

⁽⁵⁾ كوربان، المرجع السابق، ص202.

⁽⁶⁾ المرجع والمكان نفسهما.

⁽⁷⁾ المرجع والمكان نفسهما.

⁽⁸⁾ زكي نجيب محمود، جابر بن حيّان، سلسلة أعلام العرب (مصر: دار مصر للطباعة، 1961)، ص20-21.

⁽⁹⁾ المرجع السابق، ص203.

المصطلحات التقنيّة الفارسيّة كالتشادر - إلى أفضليّة البحث عن الوسائط بين الكيمياء اليونانيّة السحريّة والكيمياء الجابريّة في مراكز التقاليد اليونانيّة المشرقيّة في إيران عما في سواها⁽¹⁰⁾.

جديرٌ بالذكر أنّ (روسكا) ألّف كتاباً بعنوان "الكيميائيون العرب"، وهو كتابٌ صدر في سنة 1924، ويقع في جزئين، تناول الأوّل منهما الأمير الأموي أبا هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (ت 703/هـ 704م أو 704/هـ 708م)، بينما تناول الثاني الإمام (جعفر الصادق)⁽¹¹⁾. وفي هذا الجزء من الكتاب، يرفض (روسكا) الرواية التي تصوّر الإمام (جعفرًا) معلّمًا في الكيمياء لـ(جابر)، على اعتبار أنّ الشّروط الأساسيّة المتمثّلة في العلماء اليونانيين في الإسكندريّة، أو حتى في دمشق، الذين كانوا على معرفةٍ ما بالمصادر الصّنعويّة، والذين ربما أجروا في السّر تجارب كيميائيّة، لم تكن متوفّرةً في المدينة، وفي الوسط الذي عاش فيه الإمام (جعفر)، فضلاً عن أنّ رجلاً تقيّاً مثله لا يمكن أن يصل إليه أي علمٍ بالكيمياء العمليّة أو النظريّة⁽¹²⁾.

ويظهر أنّ (كوربان) يطمئن إلى رأي المستشرق البريطاني هولميارد (Eric John Holmyard)، الذي يتفق مع ما ورد في الروايات التقليديّة، ويؤكد أنّ (جابرًا) عاش في حدود القرن الثاني الهجريّ/ الثامن الميلاديّ، وأنّه كان تلميذاً للإمام (جعفر الصادق)، وأنّه فعلاً صاحبُ المجموعة الضخمة من المؤلّفات التي تزيد على ثلاثة آلاف رسالة⁽¹³⁾. ويرى (كوربان) أنّ هذا الحجم من المؤلّفات المنسوبة إلى (جابر) ليس ببعيد التصديق إذا ما قارناه بمؤلّفات الشّيخ الأكبر محيّي الدين محمد بن علي المعروف بابن عربيّ (ت 638/هـ 1240م) أو الشّيخ محمد باقر المجلّسيّ (ت 1111/هـ 1699م) مثلاً⁽¹⁴⁾. إنّ اختيار (كوربان) كلاً من: ابن عربيّ والشّيخ المجلّسيّ - المتأخّرين - للمقارنة، له مغزاه، فهو لا يعكس فقط العناية الموهلة بالتصوّف والتشيع، والتي طغت حتى على نماذج المقارنة، وإنّما أيضاً العناية برموز التصوّف السنّيّ الذين طوروا بعض الطّروح الشّيعيّة - كما سنرى لاحقاً - وإلا فإنّ التّاريخ الثقافيّ العربيّ الإسلاميّ حافلٌ بأسماء أخرى - أقرب عهداً إلى (جابر) - عُرفت بنتائجها المتنوع الغزير كأبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكنديّ (ت حوالي 252/هـ 866م)، وأبي بكر محمد بن زكريّا الرّازيّ (ت في حدود سنة 320/هـ 932م).

⁽¹⁰⁾ كوربان، المرجع السابق، ص 61-62.

⁽¹¹⁾ يُنظر: رودى بارت، الدّراسات العربيّة والإسلاميّة في الجامعات الألمانيّة، المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه، ترجمة، مصطفى ماهر (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2011)، ص 63-64؛ صلاح الدّين المنجد، المستشرقون الألمان، تراجمهم وما أسهموا به في الدّراسات العربيّة (ط1، بيروت: دار الكتاب الجديّد، 1978)، ج1، ص 149-150؛ بدوي، المرجع السابق، ص 290، ص 291.

(12) J. Ruska: Arabische Alchemisten II. Gā'far al Ṣādiq. der seehste Imām (1922 (حلب 338) في طباعة بطريفة منول Manul هايدل برغ 1924، ص 40-41. نقلًا عن: فواد سزكين، تاريخ التّراث العربيّ، ترجمة، عبدالله بن عبدالله حجازي، مراجعة، مازن يوسف عماري (ط1، المملكة العربيّة السّعوديّة: مطابع جامعة الملك سعود، 1986م)، ص 4، ص 191.

⁽¹³⁾ المرجع السابق، ص 202-203.

⁽¹⁴⁾ المرجع نفسه، ص 203.

ويشير (كوربان) إلى أنّ (كراوس) خلص من أبحاثه وانتقاداته - التي يصفها بـ"المتحفظة" - إلى إثبات عدّة مؤلّفين، وبذلك فإنّ مجموعاتٍ عدّة من المؤلّفات قد نشأت حول نواةٍ أصلية، وفق ترتيبٍ يوشكُ أن يُتوصّل إلى إقامته من جديد، وذلك في حدود القرنين الثّالث والرّابع الهجريين/ التّاسع والعاشر الميلاديين، لا في حدود القرن الثّاني الهجريّ/ الثّامن الميلاديّ⁽¹⁵⁾.

ومن اللافت للنظر أنّ (كوربان) لا يستشهد مطلقاً بما ورد في كتاب "الفهرست" للنّدِيم (ت 380هـ/990م)، وهو أقدمُ مَنْ عرض الآراء المختلفة حول حقيقة وجود (جابر) وحقيقة مؤلّفاته، وردّ عليها⁽¹⁶⁾، وإنّما يكتفي بوصف شهادة أبي سُلَيْمان مُحَمَّد بن طَاهِر المَنْطِقِيّ السّجِسْتَانِيّ (ت بعد 391هـ/1000م)، المعاصر للنّدِيم، ضد (جابر)، بأنّها تتناقض مع ذاتها، دون بيانٍ لا لمحتوياتها ولا لمسوّغات رفضها⁽¹⁷⁾، على الرّغم من أنّ بعض المؤرّخين من المستشرقين الذين سبقوه قد أشاروا إليها⁽¹⁸⁾. ولا يُفهم من ذلك إلا أنّ (كوربان) لا يعير هذه الشّهادة أيّ اهتمامٍ، بدليل أنّه ينبّه في موضعٍ آخر من كتابه إلى أنّها كانت من الأمور التي لا أهميّة لها، والتي كانت تُبحث في مجالس المَنْطِقِيّ⁽¹⁹⁾. وهذه الشّهادة تنصّ على أنّ رجلاً اسمه الحَسَن بن النّكَد المَوْصِلِيّ هو الذي صنّف الكتب ونحلّها (جَابراً)⁽²⁰⁾.

إنّ ما ذكرناه آنفاً من اطمئنان (كوربان) إلى رأي (هولميارد) يتجلّى مع تصريحه بأنّ إثبات ما ورد في الرّوايات التقليديّة هو أشدّ خصباً وفائدةً من الانتقاد التاريخي المتطرّف الذي يبطأ أرضاً غير ثابتة معرضة لأنّ تنخسف وتغور⁽²¹⁾.

ولا يكتفي (كوربان) بقبول ما يرد في الرّوايات التقليديّة حول وجود صلاتٍ بين (جابر) والإمام (جعفر الصادق)، وإنّما يقرّ أيضاً بوجود صلاتٍ بين (جابر) و(الإسماعيلية)، سيكشف عن أثرها - لاحقاً - في معرض تحليله لما ورد في كتاب "المأجد"^(*)، حيث يبيّن أنّ عدم بخس الأئمّة الشّيعيّة حقّهم أو تجاهل كلّ ما روي لنا عنهم جملةً، فضلاً عن معرفتنا أنّ الاسماعيلية تكوّنت في البدء مع أتباع الإمام أبي مُحَمَّد

⁽¹⁵⁾ المرجع السابق، ص 203.

⁽¹⁶⁾ أبو الفرج مُحَمَّد بن إسحاق، قابله على أصوله وعلّق عليه وقدم له، أيمن فؤاد سيد (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2009)، م 2، ج 1، ص 450-452.

⁽¹⁷⁾ كوربان، المرجع السابق، ص 203.

⁽¹⁸⁾ يُنظر على سبيل المثال لا الحصر: باول كراوس، "جابر"، موجز دائرة المعارف الإسلاميّة، الأجزاء الأولى من (أ) إلى (ع)، إعداد وتحرير، نخبة من العلماء بإشراف، إبراهيم زكي خورشيد، وأحمد الشننناوي، وعبدالحاميد يونس، الأجزاء من (ع) إلى (ي)، ترجمة، نخبة من أساتذة الجامعات المصريّة والعربيّة (ط 1، مصر: مطابع الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1998)، ج 9، ص 2596؛ كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربيّ، نقله إلى العربيّة، السيّد يعقوب بكر، ورمضان عبدالنّوّاب (ط 2، القاهرة: دار المعارف، د.ت)، ج 4، ص 307-308.

⁽¹⁹⁾ المرجع السابق، ص 252.

⁽²⁰⁾ حول هذه الشّهادة يُنظر: سزكين، المرجع السابق، م 4، ص 292-293.

⁽²¹⁾ المرجع السابق، ص 203.

^(*) يجعله مترجمي كتاب كوربان "كتاب المجيد" وهو خطأ. حقّقه ونشره كراوس. يُنظر: أبو عبد الله جابر بن حيّان الكوفيّ، مُختار رسائل جابر بن حيّان، عني بتصحيحها ونشرها، باول كراوس (القاهرة: مكتبة الخانجي ومطبعها، 1354هـ)، ص 115-125.

اسماعيل بن جعفر الصادق (ت بعد 136هـ/753م) (*)، يعني أن الصلات بين (جابر) و(الإسماعيلية)، وبين (جابر) والإمام (جعفر الصادق)، تظهر على وجهها الحقيقي⁽²²⁾. ولا يرى (كوربان) وجود أي سبب وجيه لإنكار وجود (جابر)، ما دام الكيميائي الجليلي (ت 743هـ/1342م) قد استخلص سيرته من مجمل المصنّفات الجابرية⁽²³⁾.

ولا يجد (كوربان) أي شيء من الاختلاف في افتراض وجود عدّة مؤلّفين لمجموعة المصنّفات التي تحمل اسم (جابر)، على اعتبار أن الفكر الجابري، والشخصية الجابرية، أخذت في النهاية معنى خاصاً يتخطى الحدود⁽²⁴⁾.

أما فيما يتعلّق بالمحور الثّاني، وهو النّظرية الجابرية عن الميزان، والتي يشير (كوربان) إلى أنّها تُظهر العلاقات بين الكيمياء الجابرية والفلسفة الدّينية عند الإسماعيلية⁽²⁵⁾، فعلى الرّغم من أنّه يعرض - بادئ الأمر - رأي (كراوس) الذي يصف هذه النّظرية بأنّها "تمثّل في العصر الوسيط محاولة دقيقة لبناء نظام كميّ في العلوم الطّبيعية"⁽²⁶⁾، إلا أنّه يرى أنّ وفاة (كراوس) التي حالت دون إنجاز أبحاثه، حالت أيضاً دون اختبار مدى صحّة طرحه⁽²⁷⁾. ويعدّ (كوربان) العلوم "الكميّة" الجابرية نظرةً شاملةً في الكون، قائمة بذاتها، ذلك أنّ علم الميزان يكاد يتناول بالقياس معطيات المعرفة البشريّة بأكملها، وهو يطبّق على الكون بأسره، حيث إنّ هناك موازين لقياس كلّ من: العقل، ونفس العالم، والطّبيعة، والصّور، والأفلاك، والكواكب، والطّباع الأربعة، والحيوان، والنبات، والمعدن، وميزان الحروف الذي هو أشرف الموازين جميعاً. ويحاول علم الميزان اكتشاف العلاقات بين ظواهر الأجسام وبواطنها، وذلك عن طريق العمليّة الكيميائيّة السّحريّة، التي يمكن أن تكون حالةً تطبيقيّةً للتأويل الإسماعيلي، الذي يُخفي الظّاهر، ويظهر الخفي، وهذه العمليّة تظهر وكأنّها عمليّة نفسية - روحيّة، تقيس مدى شوق النّفس للحلول في المادة، وهذا القياس هو مبدأ وهدف علم الميزان، والذي يمكن عدّه سبقاً علمياً في مجال "الطّاقة النّفسية"⁽²⁸⁾.

هذا مختصر - مركّز - لما ذكره (كوربان) عن علم الميزان - اعتماداً على ما ورد في بعض مؤلّفات (جابر) - وسوف أتمدّد التعليق على ما ورد فيه، لشدّة تعقيده، وبالإمكان إحالة القارئ إلى ما ورد

(*) لا يُعرف تاريخ ميلاد إسماعيل بن جعفر، وهناك اختلاف في تاريخ وفاته، ولكنّ أحد أكبر المتخصصين المعاصرين في تاريخ الإسماعيلية، وهو فرهاد دفتري، يُرجح أنّ وفاته المبكرة قد حدثت في وقت ما إبان الفترة من 136-145هـ/754-763م، والأرجح بعد سنة 136هـ بقليل. يُنظر: الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم، ترجمة، سيف الدّين القصير (ط1، بيروت: دار الساقي، 2012)، ص176.

²² (كوربان، المرجع السابق، ص204.

²³ (المرجع والمكان نفسهما.

²⁴ (المرجع والمكان نفسهما.

²⁵ (المرجع والمكان نفسهما.

²⁶ (المرجع والمكان نفسهما.

²⁷ (المرجع والمكان نفسهما.

²⁸ (المرجع نفسه، ص204-206. وقارن: ص52-53.

بشأنه عند مؤرخ العلوم التُّركيِّ الشَّهير فؤاد سزكين (Fuat Sezgin)، وإن كان مرجعه الأساس في ذلك هو (كراوس)⁽²⁹⁾.

عندما ينتقل (كوربان) إلى المحور الثالث - وهو الأخير - الخاصَّ بالنَّظريَّة الجَابريَّة عن ميزان الحروف، وهو أشرف الموازين عند (جَابِر)، فإنَّه يقف عند ما ورد في كتاب "المَاجِد"، وهو كتابٌ يحلُّ - بإسهابٍ - قيمة الحروف الرَّمزيَّة الثلاثة: العين (رمز الإمام، الصَّامت، عليّ)، والميم (رمز النَّبي، النَّاطق، المعبَّر عن الشَّريعة، محمَّد)، والسَّين (تُذَكِّرُ بسلمان الحُجَّة)⁽³⁰⁾. ويرى (كوربان) أنَّ هذا الكتاب عويص الفهم، ولكنَّه يُفصِّح عن الروابط بين مذهب (جَابِر) الكيمياءِ و"الغنوص" الإسماعيليِّ، وأنَّه قد يُوَدِّي بنا إلى معرفة سرِّ شخصية (جَابِر)⁽³¹⁾. ووفقاً لـ(كوربان) فإنَّ (جَابِر) - واعتماداً على ميزان الحروف - يُقَدِّم ترتيباً للحروف الثلاثة يُخالف التَّرتيب الرَّمزي للشَّيعة الإثني عشرية، والإسماعيلية الفاطمية، والإسماعيلية الأولى، وإسماعيلية ألموت، وهو ترتيبٌ يكون المقام الأول فيه لسلمان، الحجَّة، على الميم⁽³²⁾. ويرى (كوربان) أنَّ السَّين "المَاجِد" هو الغريب، اليتيم، الَّذي اعتمد جهده ونظره في الاهتداء إلى الطَّريق السويِّ، وتبع الإمام، وهو الَّذي يُظهر نور العين (الإمام) لكل الغرباء أمثاله...⁽³³⁾. ولم يقتصر حديث (كوربان) عن ميزان الحروف على ترجمته لـ(جَابِر)، وإنَّما أشار إليه في أكثر من موضعٍ من كتابه، فهو يرى أنَّه ليس من الحقِّ حصر فلسفة اللغة في الإسلام بمدرستي البَصْرَة والكُوفَة، مضيفاً ميزان الحروف كنوعٍ من فلسفة اللغة هذه أو عنصر أساسيٍّ من عناصرها⁽³⁴⁾، منضوٍ تحت راية التَّراث العرفانيِّ في الإسلام، وهو التَّراث المتأثِّر بالعرفان القديم وبالتَّراث الفيثاغوري^(*) المحدث⁽³⁵⁾. ووفقاً لـ(كوربان) فإنَّ ميزان الحروف هو امتدادٌ لتعاليم وأقوال الحلقَّات الشَّيعية العرفانية التي كانت تطبَّق إبدال الحروف - الَّذي يقوم عليه علم الجفَر - في الأصول العربيَّة بحذافيره، وليس ما ورد في كتاب "المَاجِد" سوى مثالٍ على ذلك⁽³⁶⁾.

⁽²⁹⁾ سزكين، المرجع السابق، م4، ص210-215.

⁽³⁰⁾ المرجع السابق، ص207.

⁽³¹⁾ المرجع والمكان نفسهما.

⁽³²⁾ المرجع والمكان نفسهما.

⁽³³⁾ المرجع نفسه، ص208.

⁽³⁴⁾ المرجع نفسه، ص223، ص225.

(*) الفيثاغورية (pythagoreanism) مدرسة فلسفية، دينية، أخلاقية، سياسية، تنظر إلى العدد على أنه جوهر الأشياء، وترى أنَّ الظواهر كلَّها تعبر عن قيم ونسبٍ رياضية. أسسها الفيلسوف والرياضيُّ اليونانيُّ فيثاغورس (Pythagoras) (495-570 ق.م). وقد مرَّت بمرحلتين متميزتين تماماً، استمرت الأولى منذ تأسيس المدرسة (نحو 530 ق.م)، إلى وفاة أفلاطون (350 ق.م)، أما الثانية فقد ابتدأت في حوالي القرن الأول للميلاد، وهي الفيثاغورية المحدثة. يُنظر: اميل برهيه، تاريخ الفلسفة، ترجمة، جورج طرابيشي (ط2)، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، (1987)، ص66-72؛ إبراهيم مذكور، محرر، المعجم الفلسفي (القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1983)، ص142، عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة (ط1)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (1984)، ج2، ص228-232.

⁽³⁵⁾ كوربان، المرجع السابق، ص223-224.

⁽³⁶⁾ المرجع السابق، ص224.

وينبّه (كوربان) إلى رأي (جابر) الذي يستبعد فيه أن تكون اللغة وليدة الاتّفاق والاستتباط، لأنّها ليست بعرض، وليس هناك نظامٌ ولا قواعد لتفسيرها، فهي ناشئة عن سريرة النّفس الكليّة وطويتها⁽³⁷⁾. ويقف (كوربان) - قليلاً - عند استنتاجات (كراوس) الذي ربط بين أقوال (جابر) وأقوال الفيلسوف اليوناني أفلاطون (عاش بين سنتي 427-348 ق.م)، فيما يتعلّق بتحليل مفردات اللغة، موضحاً أنّ (جابر)، الذي اقتبس معظم مواد عمله عن النّحاة العرب، يتجاوز الإطار الضيق لعلم النّحو، مما حدا به إلى الاهتمام بمبدأ إبدال الحروف التي تتألّف منها المفردات العربيّة، في نظرةٍ تلتقي مع نظرة النّحاة العرب الذين حاولوا أن يجعلوا من هذا المبدأ نظاماً لغويّاً جديداً، بإمكانه وحده أن يوضّح اشتقاق المفردات بعضها من بعض⁽³⁸⁾.

أمّا ما ذكرناه - ابتداءً - حول عناية (كوربان) برموز النّصّوف السّنّيّ الذين طوروا بعض الطّروح الشّيعة، فإنّه يتّضح أيضاً من خلال إشارته إلى أنّ المتصوّفين السّنّة نقلوا "علم الحروف" عن الشّيعة، وهو العلم الذي أخذ - لاحقاً - طابعاً موسعاً عند ابن عربيّ ومدرسته⁽³⁹⁾.

وفي نهاية عرضه عن (جابر) يخلص (كوربان) إلى نتيجة مفادها "إنّ شخصيّة (جابر بن حيان) ليست أسطورةً ولا خرافةً ولكنّ (جابراً) هو أكثر من شخصيّة التّاريخيّة. المجيد [المأجد] هو النموذج والمثال، فإنّ كان هناك أكثر من مؤلّف لمجموع المصنّفات المنسوبة لـ(جابر) لكان على كلٍّ منهم، أن يُعاود الكتابة، تحت اسم (جابر بن حيان)، ومأثرة المثال نصب عينيه. هذه المأثرة هي الكيمياء"⁽⁴⁰⁾.

الاستنتاجات:

تمثّل عناية (كوربان) بـ(جابر) والكيمياء جزءاً من اهتمامه الكبير بالتّصوف والتّشيع، وهو الاهتمام الذي ألقى بضلاله ليس فقط على اختياره لموضوعاتٍ بعينها للدراسة والبحث، وإنّما أيضاً على طريقة عرضه لها. ولذلك فإنّ المحاور التي تناولها (كوربان) في دراسته عن (جابر) أبرزت ما هو شيعيٌّ إسماعيليٌّ على حساب موضوعاتٍ مهمّةٍ تتعلّق بالكيمياء الجابريّة: أهدافاً، ومنهج بحثٍ، وفلسفة.

³⁷ (المرجع نفسه، ص225.

³⁸ (المرجع نفسه، ص225-226.

³⁹ (المرجع نفسه، ص134.

⁴⁰ (المرجع نفسه، ص208-209.

ولم يتناول (كوربان)، في تحليله للاختلاف التاريخي حول حقيقة وجود (جابر) وحقيقة مؤلفاته، أيّاً من آراء القدماء، مكتفياً برفضٍ مُوجزٍ غير مسوّجٍ لشهادة (أبو سُلَيْمَانَ المُنْطِقِيّ)، كما عرض باختصارٍ آراء مجموعةٍ من المستشرقين حول الموضوع نفسه، مُطمئنّاً إلى رأي (هولميارد) الذي يتفق مع السيرة التقليديّة لـ(جابر).

ولا يكتفي (كوربان) بقبول الرّواية التقليديّة التي تحدّث عن تتلمذ (جابر) على الإمام (جعفر الصّادق)، وإنّما يشير إلى وجود صلاتٍ بين (جابر) و(الإسماعيليّة)، كان لها أثر في بعض مؤلفاته وبعض نظريّاته.

أمّا ما أثاره (كراوس) حول وجود عدّة مؤلفين لمجموعة المصنّفات الجابريّة فلا يرى فيه (كوربان) شيئاً من الاختلاف؛ لأنّ (جابر)، فكراً وشخصيّةً، أخذ في النّهاية معنى خاصّاً يتجاوز الحدود. إنّ أهميّة نظريّة (جابر) عن الميزان - وهي نظريّة تعكس الأثر الإسماعيليّ - تتأتّى من كونها تكاد تتناول بالقياس مُعطيات المعرفة البشرية بأكملها، فضلاً عن شمولها للكون بأسره، في محاولةٍ لاكتشاف العلاقات بين ظواهر الأجسام وبواطنها، وهدفها قياس مدى شوق النّفس للحلّول في المادّة. أمّا نظريّة (جابر) عن ميزان الحروف، التي يعرضها في كتابه "المأجد"، فإنّها - وفقاً لـ(كوربان) - ليست مجرد نظريّة تقوم على أساس إعادة ترتيب الحروف الرّمزيّة الثلاثة: العين، والميم، والسّين، بصورةٍ تعطي للسّين أسبقيّةً على الميم، وإنّما هي أيضاً نوعٌ من فلسفة اللغة في الإسلام أو عنصرٌ أساسيٌّ من عناصرها، متأثر بالعرفان الشّيعيِّ من جهة وبالترّاث الفيثاغوري المحدث من جهة أخرى. يخلص (كوربان) في نهاية دراسته إلى أنّ (جابر) ليس أسطورةً ولا خُرَافة، لا بل هو أكثر من شخصيّة التّاريخيّة.

جريدة المصادر والمراجع:

أولاً/ المصادر الأوّليّة:

* جَابِر بن حَيّان، أبو عبد الله الكُوفِيّ (ت 200هـ/815م):

1- مجموعة مؤلفات في الخيمياء والإكسير الأعظم. دراسة وتقديم. بيير لوري. لبنان: دار ومكتبة بيبليون، 2008.

2- مُختار رسائل جَابِر بن حَيّان. عني بتصحيحها ونشرها. باول كراوس. القاهرة: مكتبة الخانجي ومطبعتها، 1354هـ.

* النّديم، أبو الفرج مُحمّد بن إسحاق (ت 380هـ/990م):

- 3- كتاب الفهرست. قابله على أصوله وعلق عليه وقدم له. أيمن فؤاد سيّد. لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلاميّ، 2009.
- ثانياً/ المراجع الثانوية:
- أ/ الكتب العربيّة والمعربيّة:
- * بارت، رودي:
- 4- الدّراسات العربيّة والإسلاميّة في الجّامعات الألمانيّة. المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه. ترجمة. مصطفى ماهر. القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2011.
- * بدوي، عبدالرحمن:
- 5- موسوعة الفلسفة. ط1. بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنّشر، 1984.
- 6- موسوعة المستشرقين. ط3. بيروت: دار العلم للملايين، 1993.
- * برهيبه، اميل:
- 7- تاريخ الفلسفة. ترجمة. جورج طرابيشي. ط2. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنّشر، 1987.
- بروكلمان، كارل:
- 8- تاريخ الأدب العربيّ. نقله إلى العربيّة. السيّد يعقوب بكر. ورمضان عبدالنّواب. ط2. القاهرة: دار المعارف، د.ت.
- * دفتري، فرهاد:
- 9- الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم. ترجمة. سيف الدّين القصير. ط1. بيروت: دار السّاقى، 2012.
- * سزكين، فؤاد:
- 10- تاريخ التّراث العربيّ. ترجمة. عبدالله بن عبدالله حجازي. مراجعة. مازن يوسف عماوي. ط1. المملكة العربيّة السّعودية: مطابع جامعة الملك سعود، 1986.
- * كوربان، هنري، بالتّعاون مع، نصر، سيّد حسين، ويحيى، عثمان:
- 11- تاريخ الفلسفة الإسلاميّة. ترجمة. نصير مرّوّ، وحسن قبيسي. راجعه وقدم له. موسى الصّدر، وعارف تامر. ط2. بيروت: عويدات للنّشر والطّباعة، 1998.
- * محمود، زكي نجيب:
- 12- جابر بن حيان. سلسلة أعلام العرب. مصر: دار مصر للطّباعة، 1961.
- * مذكور، إبراهيم (محرّر):
- 13- المعجم الفلسفيّ. القاهرة: الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، 1983.
- * المنجد، صلاح الدّين:
- 14- المستشرقون الألمان. تراجمهم وما أسهموا به في الدّراسات العربيّة. ط1. بيروت: دار الكتاب الجّديد، 1978.

ب/ البحوث والمقالات:*** كراوس، بول:**

15- "جابر". موجز دائرة المعارف الإسلاميّة. الأجزاء الأولى من (أ) إلى (ع). إعداد وتحرير. نخبة من العلماء بإشراف. إبراهيم زكي خورشيد. وأحمد الشنتاوي. وعبدالحاميد يونس. الأجزاء من (ع) إلى (ي). ترجمة. نخبة من أساتذة الجامعات المصريّة والعربيّة. ط1، مصر: مطابع الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1998.